اللغة العربية والتعليم الجامعي

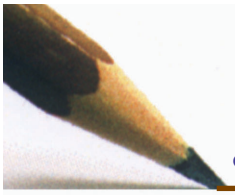

بقلم د. يعقوب أحمد الشراح
نائب رئيس التحرير

اللغة العربية إحدى اللغات العالمية، على أي مقياس اتخذه الإنسان. فإن أراد كثرة المتحدثين بها، فالعربية هي اللسان القومي لما يزيد على مائة مليون عربي وهي اللسان المقدس لأضعاف ذلك العدد من المسلمين، يتخذون منها أداة لصلواتهم، وشعائرهم، والتوسع في علوم دينهم. وإن قاسها على التاريخ وجدها قد رسخت قرابة ستة عشر قرناً نعرفها وقروناً أخرى لا نعرفها، ووجدها أصدرت أدباً قيّماً متعدد الأجناس الفنية فسيح الأرجاء. وتصدر اليوم أدباً رائداً بين آداب العالم الثالث ويبحث له عن مكان هو جدير به بين آداب العالم المتقدم ووجدها أصدرت ثقافة عالمية، نسلت عن الثقافات الإغريقية والفارسية والهندية، فتيسر لها أن تسهم في إنتاج الثقافة العالمية الحديثة.

وإن بحثنا عن ثرائها اللغوي تبين أنها تقتني ثروة طائلة من الأحوال الثلاثية والرباعية والخماسية، وتضم نظاماً كاملاً لا يختل في الاشتقاق، ونظاماً متطوراً من النحت .. بحيث تضارع غيرها من اللغات الكبيرة. وعلى الرغم من ذلك تنفرد اللغة العربية عن أخواتها من اللغات العالمية الحديثة في مجال التعليم.فقد أخضع المستعمرون الأوروبيون أنظمة التعليم المدني في الأقطار العربية التي احتلوها أو سيطروا عليها لسلطتهم المباشرة، وقرضوا لغتهم أداة لتعليم التلميذ العربي، وقد أرادوا بذلك القضاء على الثقافة العربية للتفرقة بين الأقطار العربية، الأمر الذي ييسر احتلال القطر منها بعد القطر، ويمكن المستعمر من توطيد دعائم نفوذه فيه، ولم تستطع البلاد التخلص من هذه الخطة الغاشمة إلا بعد أن فطنت إلى سوء مغبتها، وكافحت من أجل مواجهتها ودحضها.

وناضل المخلصون ليصلوا بالنظام التعليمي إلى ثمرته الطبيعية، فأنشأوا التعليم الجامعي لتخريج المثقفين، الذين يستطيعون الاطلاع على الثقافة العالمية، وتخير الصالح منها لمجتمعاتهم، وأخيراً المشاركة في ركب الحضارة. ولكن هؤلاء المخلصين فوجئوا بخلو البلاد العربية من القادرين على إدارة هذه الجامعات، وإلقاء المحاضرات فيها، واضطروا إلى أمرين: استدعاء العلماء الأجانب الذين لا يعرفون اللغة العربية أو لا يستطيعون التدريس بها، وإيفاد الطلبة العرب إلى البلاد الأوروبية لتلقي العلم فيها باللغات الأجنبية. وكلا الأمرين أدى إلى أن تستبعد اللغة العربية من الجامعة وتحل محلها لغة أجنبية. وقد كانت هذه اللغة في مصر والعراق والسودان الإنجليزية، وفي سوريا ولبنان وتونس والجزائر والمغرب الفرنسية. ولم تتحلل الأقطار العربية من قيد اللغة الأجنبية إلا بعد أن كثر أبناؤها الحاصلون على التعليم العالي، القادرون على التعليم باللغة العربية فعربت بعض الأقطار العربية التعليم الجامعي كله، مثل سوريا والمملكة العربية السعودية. وعربت بعضها أنواعاً منه، وأبقت اللغة الأجنبية في أنواع. فاتفقت الجامعات العربية على صلاحية اللغة العربية للعلوم الإنسانية، وتفوقها فيها، غير جامعة الخرطوم التي لازالت تسعى إلى تعريب العلوم الاجتماعية. وتوقف بعض الجامعات في أنواع من العلوم، وخاصة الجامعات المصرية.

«والله ولي التوفيق»

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com